

لوثر والإصلاح

المحاضرة ٨: النظرة الكاثوليكية للتبرير (الجزء الثاني)

أ.ر. سي. سرول

في مُحاضرتنا السَّابِقَةِ تَنَاوَلْنَا بِدَايَةٍ بَعْضَ الْخُطُواتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْمَفْهُومِ الْكَاثُولِيكِيِّ لِلتَّبْرِيرِ، وَفِي هَذِهِ الْمُحَاضَرَةِ سَنُلْقِي نَظْرَةً أُخْرَى عَلَى بَعْضِ الْعُنَاصِرِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِتِلْكَ النَّظْرَةِ الْخَاصَّةِ لِلتَّبْرِيرِ، وَفِي الْمُحَاضَرَاتِ التَّالِيَةِ سَنُحَاوِلُ رُؤْيَةَ التَّبَايُنِ بَيْنَ نَظْرَةِ الْإِصْلَاحِ لِلتَّبْرِيرِ مُقَارَنَةً بِالنَّظْرَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ.

فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، حِينَ بَرَزَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ، هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ الْأَهْوِيَّةُ، أَبَدَتِ الْكَنِيسَةُ الْكَاثُولِيكِيَّةُ بِرُومًا رَدًّا فِعْلِيًّا، فِي مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، خِلَالَ دَعْوَةٍ إِلَى عَقْدِ مَجْمَعِ مَسْكُونِيَّ كَبِيرٍ فِي مَدِينَةِ ثْرَانْتُو فِي إِيطَالِيَا، وَهُوَ يُدْعَى بِبَسَاطَةٍ "مَجْمَعِ ثْرَانْتِ". وَانْعِكَاسَاتُ ذَلِكَ الْمَجْمَعِ غَالِبًا مَا تَتِمُّ مُنَاقَشَتُهَا مِنْ خِلَالَ عِبَارَةٍ "تْرِيدِنْتِين". يَبْدُو كَمَا لَوْ أَنَّهُ يَتِمُّ لَفْظُهَا "تْرَايْدِنْتِين"، لَكِنَّ اللَّفْظَ الطَّبِيعِيَّ هُوَ "تْرِيدِنْتِين". إِذَا، حِينَ نَنْظُرُ إِلَى النِّبَايَاتِ الْمَجْمَعِيَّةِ لِمَجْمَعِ ثْرَانْتِ، فَإِنَّا نَدْرُسُ الْمَرَايِمَ الرَّسْمِيَّةَ لِلطَّائِفَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِعَقِيدَةِ التَّبْرِيرِ الْخَاصَّةِ بِهَا.

وَقَبْلَ أَنْ أَنْطَرِقَ إِلَى مَضْمُونِ تِلْكَ الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ، يَعْتَقِدُ أَنَا كَثْرُ الْيَوْمِ أَنَّ الْإِصْلَاحَ انْتَهَى، وَأَنَّ الْمَرَايِمَ الصَّادِرَةَ عَنْ مَجْمَعِ ثْرَانْتِ لَا صِلَةَ لَهَا بِالْمُنَاقَشَاتِ الْمَسْكُونِيَّةِ الْيَوْمِ بَيْنَ رُومًا وَالْمُمَثِّلِينَ الْبُرُوتَسْتَانْتِيَّيْنَ. وَعَلَى دَائِمًا أَنْ أذْكَرَ النَّاسَ بِهَذَا الْأَمْرِ الْمُؤَلِّمِ بِأَنَّ مَجْمَعِ ثْرَانْتِ هُوَ مَجْمَعِ مَسْكُونِيَّ، يَحْمِلُ وَرَاءَهُ كُلَّ عِبءِ عِصْمَةِ الْكَنِيسَةِ مِنَ الْخَطَايَا. وَتُعَانِي رُومًا نَوْعًا مِنَ الْهَمُوفِيلِيَا الْأَهْوِيَّةِ، أَيُّ أَنَّكَ إِنْ حَدَشْتَهَا لَاهُوتِيًّا فَإِنَّهَا تَنْزِفُ حَتَّى الْمَوْتِ. لِذَا، فَإِنَّ رُومًا نَوْعًا مَا، وَلِكِي مُحَافِظَ عَلَى نَظْرَتِهَا الْمُنْتَصِرَةَ لِسُلْطَةِ الْكَنِيسَةِ وَتَقْلِيدِهَا، لَا تَقْدِرُ أَنْ تُبْطِلَ قَوَائِمَ مَجْمَعِ ثْرَانْتِ وَمَرَايِمِهِ. وَمُؤَخَّرًا، فِي التَّعْلِيمِ الْمَسِيحِيِّ الْكَاثُولِيكِيِّ، فِي آخِرِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، رَأَيْنَا إِعَادَةَ تَأْكِيدٍ وَاضِحَةٍ جِدًّا عَلَى سُلْطَةِ مَجْمَعِ ثْرَانْتِ.

إِذَا، الْأَشْخَاصُ الَّذِينَ يُحَاوِلُونَ أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ تَعْلِيمَ تْرِيدِنْتِينِ عَنِ التَّبْرِيرِ لَمْ يَعْذُ وَثِيقَ الصِّلَةِ بِالْوَضْعِ، هُمْ بِبَسَاطَةٍ يَتَجَاهَلُونَ مَا تُعَلِّمُهُ الْكَنِيسَةُ. وَحِينَ أَتَكَلَّمُ عَنِ الْكَنِيسَةِ فَإِنِّي أَتَكَلَّمُ عَنِ الْمَجْتَمَعِ الرُّومَانِيِّ. سَتَجِدُونَ كَهَنَةً فِي أَمِيرِكَا وَفِي الْمَنَاطِقِ الْغَرْبِيَّةِ مِثْلَ هُولَنْدَا وَالْمَانِيَا مِمَّنْ يُهَاجِمُونَ بَعْضَ التَّعَالِيمِ التَّقْلِيدِيَّةِ لِطَائِفَتِهِمْ، لَكِنَّ فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِالْجَمَاعَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ وَبِالسُّلْطَاتِ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ، فَإِنَّ مَوَاقِفَ مَجْمَعِ ثْرَانْتِ تَبْقَى ثَابِتَةً فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّعْلِيمِ عَنِ التَّبْرِيرِ.

في ما يتعلّق بالتّبرير، عقّد مجمّع ثرانت جَلَسَاتِ عِدَّةً، وتَمَّتْ مُعَالَجَةُ مَسَائِلِ عِدَّةٍ فِي جَلَسَاتِ مُخْتَلِفَةٍ؛ مَسْأَلَةُ الأَسْرَارِ فِي الجُلْسَةِ الأُولَى، وَمَسْأَلَةُ الكِتَابِ المُقَدَّسِ مَثَلًا فِي الجُلْسَةِ الرَّابِعَةِ، أَيْضًا مَشَاكِلِ فَسَادِ رِجَالِ الدِّينِ وَالْمُصْلِحِينَ الحَقِيقِيِّينَ تَمَّتْ مُعَالَجَتُهَا فِي الكَنِيسَةِ لِمُحَاوَلَةِ التَّخْلِصِ مِنْ بَعْضِ مَشَاكِلِ السِّيُمُونِيَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا سَابِقًا، وَمِنْ مَشَاكِلِ أَخْلَاقِيَّةٍ أُخْرَى كَانَتْ قَدْ أَفْسَدَتِ الكَنِيسَةَ. لَكِنَّ الجُلْسَةَ السَّادِسَةَ لِمَجْمَعِ الكَنِيسَةِ - لِمَجْمَعِ ثرانت - هِيَ الأَكْثَرُ اِزْتِبَاطًا بِالتَّقَاشِ حَوْلَ عَقِيدَةِ التَّبرِيرِ. وَتَنْقَسِمُ تِلْكَ الجُلْسَةُ إِلَى قِسْمَيْنِ، نُمِيزُ التَّعْلِيمَ المُنَهَجِيَّ لِلنَّظَرَةِ الكَاتُولِيكِيَّةِ لِلتَّبرِيرِ كَجُزءٍ أَوَّلٍ، وَبَعْدَ ذَلِكَ هُنَاكَ القَوَانِينُ المَنْصُوصُ عَلَيْهَا، وَهَذِهِ القَوَانِينُ مُتَعَلِّقَةٌ بِرَفْضِ الكَنِيسَةِ لِلخَطَا وَالهِرْطَقَةِ.

وَفِي القَوَانِينِ العِشْرِينَ فِي مَجْمَعِ ثرانت، تَبَدَّ الصَّيغَةُ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا؛ إِنْ قَالَ أَحَدُهُمْ إِنْ كَذَا وَكَذَا، فَالاسْتِنْتَاجُ هُوَ "فَلْيَكُنْ أَنَاثِيمًا". القَوَانِينُ الثَّلَاثَةُ الأُولَى مُوجَّهَةٌ ضِدَّ البِيلاجِيوسِيَّةِ، الَّتِي تَمَّتْ إِدَانَتُهَا فِي مَجَامِعِ سَابِقَةٍ لِكَنِيسَةِ، وَلمْ تَكُنْ مُوجَّهَةٌ خِصِيصًا إِلَى الإِصْلَاحِ البُرُوتِسْتَانْتِيَّ. الدَّرَاسَةُ الدَّقِيقَةُ لِقَوَانِينِ ثرانت تُعْلِنُ - عَلَى مَا أَظُنُّ - أَنَّهُ فِي حَالَاتٍ عِدَّةٍ حَيْثُ وَجَّهَتْ رُومًا أَسْلِحَتَهَا ضِدَّ الإِصْلَاحِيِّينَ، عَقَلَتْ عَنِ الإِصْلَاحِيِّينَ تَمَامًا، كَانِ يُوجَدُ سُوءُ فَهْمٍ مُعَيَّنٌ ضِمْنَ الأَنَاثِيمَا الخَاصَّةِ بِهِمْ. وَنَظَرَ البَعْضُ إِلَى ذَلِكَ وَقَالُوا إِنْ الأَمْرَ بِرُمْتِهِ كَانِ سُوءَ فَهْمٍ، وَإِنَّ كِلَا الطَّرْفَيْنِ يَتَكَلَّمَانِ لِأَهْدَافٍ مُتَعَارِضَةٍ وَلمْ يَفْهَمَا المَسَائِلَ فِعْلًا. مِنَ المُؤَسَفِ أَنَّ هَذَا قَدْ يَكُونُ صَاحِبًا لِدرَجَةٍ مُعَيَّنَةٍ لَكِنَّ لَيْسَ تَمَامًا. بَعْضُ تِلْكَ القَوَانِينِ صَاحِبٌ، وَهِيَ تُعْلِنُ بِوُضُوحٍ عَقِيدَةَ الإِصْلَاحِ المُتَعَلِّقَةَ بِالتَّبرِيرِ بِالإِيمَانِ.

إِلَيْكُمْ مَعْنَى ذَلِكَ، إِنْ كَانَ تَعْبِيرُ الإِصْلَاحِ عَنِ عَقِيدَةِ التَّبرِيرِ الكِتَابِيَّةِ صَاحِبًا - وَأَنَا أُوْمِنُ طَبَعًا بِأَنَّهُ كَذَلِكَ - فَإِنَّ لَعْنَهُ هُوَ لَعْنٌ لِلانْجِيلِ، وَأَيُّ طَائِفَةٍ أَوْ مُنْظَمَةٍ تُعْلِنُ أَنَّهَا مَسِيحِيَّةٌ، إِنْ أَنْكَرَتْ أَوْ دَانَتْ حَقِيقَةَ جَوْهَرِيَّةِ فِي المَسِيحِيَّةِ، فَبِئْسَ هَذَا الصَّدَدِ تُصْبِحُ تِلْكَ المُنْظَمَةُ مُرْتَدَّةً، وَلا تَعُودُ كَنِيسَةً حَقِيقِيَّةً أَوْ شَرِيعِيَّةً. وَهَذَا جُزءٌ مِنْ مُشْكَلَةِ المُنَاقَشَاتِ المُسْتَمِرَّةِ بَيْنَ رُومًا وَالهَيئاتِ البُرُوتِسْتَانْتِيَّةِ. تُوجَدُ هَيئاتُ بُرُوتِسْتَانْتِيَّةٍ عِدَّةٌ لا تَأْبَهُ فِعْلًا لِلإِخْتِلَافَاتِ العَقَائِدِيَّةِ، وَيَسْرُهُا الدُّخُولُ فِي نِقَاشَاتٍ وَاتِّفَاقَاتٍ مَسْكُونِيَّةٍ مَعَ رُومًا، لَكِنَّ إِنْ أَخَذَ أَحَدُهُمْ عَقِيدَةَ التَّبرِيرِ الكِتَابِيَّةِ عَلَى مَحْمَلِ الحُجْدِ، فَبِئْسَ هَذَا الصَّدَدِ، لا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ تَقَارُبٌ، لا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ أَيُّ وَحْدَةٍ مَا لَمْ يَسْتَسْلِمِ طَرْفٌ أَوْ آخَرٌ، لِأَنَّ المَوْقِفَيْنِ هُمَا بِبَسَاطَةٍ مُتضَارِبَانِ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَحْتَارَ فِي مَرَحَلَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَيُّ وَاحِدٍ عَلَى صَوَابٍ. أَحَدُهُمْ مُحَقِّقٌ، وَالأَخَرُ مُخْطِئٌ، وَالمُخْطِئُ شَوْهَةٌ بِشَكْلِ مَلْحُوظِ انْجِيلِ العَهْدِ الحَدِيدِ. وَكَمَا قَالَ الرَّسُولُ بُولُسُ لِأَهْلِ غَلَاطِيَّةِ "وَلَكِنَّ إِنْ بَشَرْنَاكُمْ نَحْنُ بِغَيْرِ مَا قَبِلْتُمْ"، لِأَنَّهُ لا يُوجَدُ انْجِيلٌ آخَرٌ، ثُمَّ يَتَابِعُ قَائِلًا "إِنْ كَانَ مَلَائِكٌ مِنَ السَّمَاءِ فَلْيَكُنْ «أَنَاثِيمًا»". إِذَا، أَحَدُهُمْ تَحْتَ لَعْنَةِ اللهِ هُنَا. وَتِلْكَ المَسْأَلَةُ - وَأَنَا أُسَارِعُ إِلَى القَوْلِ لَكُمْ - لَمْ تُحَلَّ.

بِقَدْرِ مَا أَنَّ قَوَانِينَ الْأَنْثِيمَا جَدِيدَةً فِي الْجُلُوسَةِ السَّادِسَةِ مِنْ مَجْمَعِ ثِرَانْتِ، أَعْتَقَدُ أَنَّ أَصْعَبَ مَا يُمَكِّنُ حَلَّهُ لَدَى الطَّرَفَيْنِ مَوْجُودٌ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْجُلُوسَةِ السَّادِسَةِ، حِينَ تَمَّ تَحْدِيدُ عَقِيدَةِ رُومَا. تَبْدُلُ رُومَا مَجْهُودًا كَبِيرًا لِيُوصَفَ مَا هِيَ الْإِيمَانِ الَّذِي يُخَلِّصُ، وَمَا يَتَضَمَّنُهُ الْإِيمَانُ الَّذِي يُخَلِّصُ. وَكَمَا قُلْتُ سَابِقًا، مِنَ الْاِفْتِرَاءِ الْقَوْلُ إِنَّا نُوْمِنُ بِالتَّبَرِيرِ بِالْإِيمَانِ وَرُومَا نُوْمِنُ بِبَسَاطَةِ التَّبَرِيرِ بِالْأَعْمَالِ كَمَا لَوْ أَنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ ضَرُورِيًّا. بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، تُعَلِّمُ رُومَا بِوُضُوحٍ فِي الْجُلُوسَةِ السَّادِسَةِ أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ مَا نُسَمِّيهِ الشَّرْطَ الضَّرُورِيَّ لِلتَّبَرِيرِ. وَلَدَى الْإِيمَانِ ثَلَاثَةُ عَنَاصِرٍ أَوْ خَطَوَاتٍ مُرْتَبِطَةٍ بِهِ.

فِي الْجُلُوسَةِ السَّادِسَةِ، تَتَكَلَّمُ رُومَا عَنِ الْإِيمَانِ عَلَى أَنَّهُ "ذِي إِبْنِيْتِسْيُوم"، "ذِي فُونْدَامِنْتُوم"، وَ"ذِي رُودْكَس" التَّبَرِيرِ، مَا تَرَجَّمَتْهُ:

أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ بَدَأُ التَّبَرِيرِ، إِنَّهُ نُقْطَةُ الْاِنْتِطَاقِ الَّتِي تَسْتَهْلُ عَمَلِيَّةَ التَّبَرِيرِ، إِنَّهُ "ذِي فُونْدَامِنْتُوم"، الْأَسَاسُ، الْبُنْيَةُ الْأَسَاسِيَّةُ الَّتِي يُثْبِتُ عَلَيْهَا التَّبَرِيرُ. وَبِدُونِ ذَلِكَ الْأَسَاسِ، بِدُونِ تِلْكَ الْبُنْيَةِ الْأَسَاسِيَّةِ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْدُثَ تَبَرِيرٌ، وَهُوَ لَيْسَ الْبَدَأُ وَالْأَسَاسُ فَحَسْبُ، إِنَّهُ أَيْضًا "رُودْكَس"، أَيْ أَصْلٌ. إِنَّهُ الْجَوْهَرُ الْأَسَاسِيُّ لِلتَّبَرِيرِ. هَلْ تَسْمَعُونَ الْمَقْصُودَ بِذَلِكَ؟ وَهُوَ أَنَّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى رُومَا لَيْسَ الْإِيمَانُ مُجَرَّدَ مُلْحَقٍ لِلتَّبَرِيرِ، لَيْسَ إِضَافَةً عَدِيمَةَ الْأَهْمِيَّةِ إِلَى قُوَّةِ الْأَسْرَارِ فِي الْكَنِيسَةِ، بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، الْإِيمَانُ - كَمَا ذَكَرْتُ - هُوَ الْبَدَأُ، هُوَ الْأَسَاسُ، وَهُوَ الْجَوْهَرُ الْأَسَاسِيُّ لِلتَّبَرِيرِ.

إِذَا، هَذَا شَرْطٌ ضَرُورِيٌّ، هَذَا يَعْنِي أَنَّهُ شَرْطٌ بِدُونِهِ لَا يُمَكِّنُ الْخُصُولَ عَلَى تَبَرِيرٍ. لَكِنَّ الْفَرْقَ هُوَ أَنَّهُ وَفَقَ رُومَا لَيْسَ الْإِيمَانُ شَرْطًا كَافِيًا، الشَّرْطُ الْكَافِي هُوَ شَرْطٌ إِذَا تَمَّتْ تَلْبِيَّتُهُ سَيُؤَدِّي حَتْمًا إِلَى التَّيَجَةِ الْمَرْجُوعَةِ. الْأُوكْسِجِينُ مَثَلًا، هُوَ فِي مُعْظِمِ الْحَالَاتِ شَرْطٌ ضَرُورِيٌّ لِاِشْتِعَالِ النَّارِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ شَرْطًا كَافِيًا. بِدُونِ أُوكْسِجِينِ، لَا نَارَ، لَكِنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْمَكَانُ مَلِيئًا بِالْأُوكْسِجِينِ بِدُونِ أَنْ تَشْتَعَلَ النَّارُ، لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ الْقُوَّةَ الْكَافِيَةَ لِاِشْتِعَالِ النَّارِ. شُكْرًا لِلَّهِ، وَإِلَّا فِي كُلِّ مَرَّةٍ نَكُونُ فِي مَكَانٍ مَلِيٍّ بِالْأُوكْسِجِينِ كُنَّا لِنَتَنَفَّسَ التَّيْرَانَ. إِذَا، تُدْرِكُونَ الْفَرْقَ بَيْنَ الشَّرْطِ الضَّرُورِيِّ وَالشَّرْطِ الْكَافِي.

نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مَجْمَعِ ثِرَانْتِ يُعَلِّمُ أَنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ كَافِيًا بِحَدِّ ذَاتِهِ لِيُعْطِيَ نَتِيْجَةَ التَّبَرِيرِ، لِأَنَّهُ أَثْنَاءَ مُعَالَجَتِهِ مَوْضُوعٌ فُقِدَانَ التَّبَرِيرِ مِنْ خِلَالِ الْخُطْبَةِ الْمُؤَمِّتَةِ، فَهُوَ يُعْلِنُ صَرَاحًا أَنَّهُ يُمَكِّنُ لِإِيمَانِ الْإِنْسَانِ أَلَّا يَمَسَّ، إِيْمَانٍ حَقِيقِيٍّ لَا يَمَسُّ، وَبَيْنَمَا هُوَ فِي حَالَةِ الْإِيمَانِ يَرْتَكِبُ خَطِيئَةً مُؤَمِّتَةً، وَحِينَ تُرْتَكَبُ خَطِيئَةٌ مُؤَمِّتَةٌ بَيْنَمَا تَكُونُ فِي حَالَةِ إِيْمَانٍ حَقِيقِيٍّ، لَا يُفْقَدُ الْإِيمَانُ، خِلَافًا لِلتَّبَرِيرِ. إِذَا، أَنْتُمْ تَرَوْنَ بِوُضُوحٍ فِي ذَلِكَ الْمَثَلِ أَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِهِمْ مَا

نُسَمِيهِ "الإيمان الَّذِي يُجَلِّصُ" بِدُونِ تَبْرِيرٍ، يُمَكِّنُكَ أَنْ تُحَافِظَ عَلَى الإِيمَانِ وَأَنْ تُخَسِرَ التَّبْرِيرَ لِأَنَّكَ ارْتَكَبْتَ خَطِيئَةً مُمِيتَةً.

التُّقْطَةُ التَّالِيَةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ نَتَنَاوَلَهَا هِيَ كَيْفِيَّةُ فَهْمِ رُومَا السَّبَبِ الوَسِيلِيِّ لِلتَّبْرِيرِ. حِينَ نَتَحَدَّثُ عَنْ أُمُورٍ تُسَبَّبُ أُمُورًا أُخْرَى فَإِنَّا نَفَكِّرُ عَادَةً فِي السَّبَبِيَّةِ بِمُصْطَلِحَاتٍ بَسِيطَةٍ أُحَادِيَّةِ البُعْدِ، لَكِنَّ الكَنِيسَةَ الكَاثُولِيكِيَّةَ تُمَيِّزُ بَيْنَ أَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الأَسْبَابِ، وَفِي هَذِهِ الحَالَةِ، هَذَا يَرْجِعُ إِلَى تَوَلِيفِ القُرُونِ الوُسْطَى بَيْنَ اللَّاهُوتِ الكَاثُولِيكِيِّ وَفَلَسَفَةِ أَرِسْطُو الأيونانية القديمة. وَأَرِسْطُو، وَأَثْنَاءَ تَأْمُلِهِ فِي سِرِّ الحُرْكَةِ، مَا يُحَرِّكُ شَيْئًا مَا لِيُسَبَّبَ شَيْئًا آخَرَ، لِيُنْتَجِ تَغْيِيرًا وَتَحَوُّلَاتٍ، دَرَسَ مَا أَسْمَاهُ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً مِنَ الأَسْبَابِ.

وَأَصْبَحَ الأَمْرُ مُهِمًّا لِلحَدِيثِ لِلسَّبَبِ الآتِي؛ التَّوْضِيحُ الشَّهِيرُ لِأَرِسْطُو يَتَعَلَّقُ بِصُنْعِ مَنْحُوْتَةٍ عَلَى يَدِ نَحَّاتٍ، وَمَيِّزُ بَيْنَ أَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ، مَثَلًا، السَّبَبِ المَادِّيِّ حَدَدَهُ أَرِسْطُو عَلَى أَنَّهُ مَا يَتِمُّ صُنْعُ شَيْءٍ مَا مِنْهُ. لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ لَدَيْكَ مَنْحُوْتَةٌ حَجَرِيَّةٌ بِدُونِ حَجَرٍ، إِذَا، المَادَّةُ أَوِ الشَّيْءُ الَّذِي تَكُونَتْ تِلْكَ المَنْحُوْتَةُ الجَمِيلَةُ مِنْهُ هُوَ الحَجَرُ أَوِ البُرُونزُ، أَوْ أَيًّا تَكُنِ المَادَّةُ الَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا يَكُونُ السَّبَبِ المَادِّيِّ. ثُمَّ يَتَكَلَّمُ عَنِ السَّبَبِ الشَّكْلِيِّ. السَّبَبِ الشَّكْلِيِّ يَعْنِي أَنْ يَدُونَ الرِّسَامِ رَسْمًا تَخْطِيطِيًّا فِي البِدَايَةِ لِلشَّكْلِ النَّهَائِيِّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ تَتَّخِذَهُ المَنْحُوْتَةُ، فَتَكُونُ هَذِهِ مَسْوَدَّتَهُ، تَكُونُ الشَّكْلُ الَّذِي يُرِيدُ اتِّبَاعَهُ، فَيَكُونُ هَذَا السَّبَبِ الشَّكْلِيِّ. السَّبَبِ النَّهَائِيِّ هُوَ الهَدَفُ الَّذِي تَمَّ صُنْعُ المَنْحُوْتَةِ لِأَجْلِهِ، رُبَّمَا صُنِعَتْ لِتَجْمِيلِ حَديقَةٍ أَحَدِهِمْ، لِذَا تَمَّ اسْتِخْدَامُ النَّحَّاتِ لِصُنْعِ المَنْحُوْتَةِ. ثُمَّ نَنْتَقِلُ إِلَى السَّبَبِ المُوَثَّرِ. السَّبَبِ المُوَثَّرِ، أَيُّ مَا يُجْدِثُ تَأْثِيرًا. تَحْوِيلُ المَادَّةِ إِلَى تَمَثَالٍ جَمِيلٍ هُوَ عَمَلُ النَّحَّاتِ نَفْسِهِ، إِنَّهُ هُوَ السَّبَبِ المُوَثَّرِ، إِلَى آخِرِهِ.

فِي تِلْكَ العَمَلِيَّةِ تَكَلَّمَ أَرِسْطُو عَنِ السَّبَبِ الوَسِيلِيِّ، أَيِ الوَسِيلَةِ أَوِ الأَدْوَاتِ الَّتِي تَمَّ اسْتِعْمَالُهَا لِإِحْدَاثِ التَّغْيِيرِ. لَا يَقْتَرِبُ النَّحَّاتُ مِنْ كُتْلَةِ الصَّوَّانِ، أَوْ مَا هُوَ هَذَا الشَّيْءُ الَّذِي يَسْتَعْمِلُونَهُ فِي إِطْطَالِيَا؟ الرُّخَامُ، مَعَ صُورَةٍ مَا يُرِيدُ أَنْ يَرَاهُ فِي النَّهَائِيَّةِ، دَاوُدَ أَوْ بِييْتَا أَوْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ، ثُمَّ يَتَكَلَّمُ بِبَسَاطَةٍ إِلَى الرُّخَامِ قَائِلًا: "كُنْ تَمَثَالًا"، لَا يَنْجَحُ الأَمْرُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ. عَادَةً عَلَى النَّحَّاتِ أَنْ يَطَّلِعَ بِمِهْمَةٍ أَخِذْ إِزْمِيلَهُ وَأَخِذْ مِطْرَقَتَهُ وَالبَدْءِ بِنَحْتِ كُتْلَةِ الحِجَارَةِ تِلْكَ، لِيُشَكِّلَهَا وَيُحَوِّلَهَا إِلَى مَنْحُوْتَةٍ فَنِّيَّةٍ. إِذَا، الأَوَانِي الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا أَوِ الوَسَائِلُ الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا تُدْعَى السَّبَبِ الوَسِيلِيِّ لِجَعْلِ التَّمَثَالِ حَيَّرَ الوُجُودِ.

بِالمَعْنَى اللَّاهُوتِيَّةِ، اسْتَعْمَلْتُ رُومَا هَذَا التَّشْبِيهِ وَقَالَتْ إِنَّ السَّبَبِ الوَسِيلِيِّ لِلتَّبْرِيرِ، الوَسِيلَةَ، الأَدَاةَ الَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا الكَنِيسَةُ لِجَعْلِ الإِنْسَانِ فِي حَالَةِ التَّعْمَةِ المُبَرَّرَةِ، هُوَ سِرُّ المَعْمُودِيَّةِ. هُنَا المُصْلِحُونَ - سَتَنَعَمُّ فِي هَذَا المَوْضُوعِ فِي الأُسْبُوعِ المُقْبِلِ - قَالُوا: "لَا، السَّبَبِ الوَسِيلِيِّ الوَحِيدُ هُوَ الإِيمَانُ وَلَيْسَ السَّرُّ، بَلِ الإِيمَانُ الكَامِنُ فِي قَلْبِ المُؤْمِنِ،"

هذه هي الوسيلة التي تربطنا بعمل المسيح لِحِلاصنا. إذا، مسألة تحديد السبب الواسع للتبرير لم تكن مسألة بسيطةً آنذاك.

أيضاً، أود أن أشير إلى أنه في النظر الكاثوليكية، نسمي النظر الكاثوليكية للتبرير النظر التحليلية. النظر التحليلية هي كالاتي: الجملة التحليلية هي جملة صحيحة بطبيعتها، إنها حقيقة رسميةٌ نسميها الحشو. اثنان زائد اثنان يساوي أربعة، هذه الجملة صحيحة تحليلياً، أي تحت التحليل تدرس ما يساويه اثنان زائد اثنان وتقول إنك تجد الأمر نفسه عند الجانب الآخر من المعادلة، أي أربعة. هذه حقيقة رسمية، هذا ليس أمراً يجب إثباته عبر الاختبار أو المراقبة، هذه حقيقة حسابية. هذا مثل آخر عن الجملة التحليلية: الأعزب هو رجل غير متزوج. لم تتعلموا شيئاً في الخبر لم يكن موجوداً في المبتدأ، لم تقولوا أي جديد يُحدد كلمة "أعزب" غير ما تتضمنه الكلمة بحد ذاتها ضمناً، هل ترون ما أقوله؟

يوافق كل من البروتستانت والكاثوليك على أنه في نهاية المطاف لا أحد يتبرر إلى أن أو ما لم يعلن الله أن هذا الإنسان بار. إعلان الله هذا هو إعلان قانونيٌ محكمه هو. حين نقول إن النظر الكاثوليكية تحليلية، فهذا يعني الآتي: أن الله لن يقول إن أحدهم بار ولن يعلن أن أحدهم بار شرعياً، ما لم أو إلى أن يكون هذا الشخص وبعد التحليل باراً فعلياً. هو لا يحسب باراً من ليس باراً فعلاً. لذا نتابع روماً قائلة في القرن السادس عشر إنه قبل أن يعلن الله أن أحدهم بار، يجب أن يلازم العدل أو البر نفس الإنسان. الكلمة اللاتينية هنا هي "إينهيرينس"، يجب أن يكون ملازماً للشخص بحيث أن لا أحد يصبح مبرراً فعلاً إلى أن يقوم الله، وتحت التحليل، بقراءة حياته وقراءة نفسه ولا يرى شيئاً سوى البر لديه. إن مات أحدهم بعد ارتكابه خطيةٌ مميتة فإنه يذهب إلى الجحيم، إن مات أحدهم وكانت لديه أي خطية أو أي نقص أو عيب في نفسه، لا يمكن أن يتم قبول هذا الإنسان في السماء، بل يجب أن يجيز أولاً في التيران المطهرة، في المظهر، حيث يتم التخلص من تلك الشوائب حتى الوقت الذي يصبح فيه البر متصلاً فعلاً في المؤمن.

ترون ما هو على المحك هنا؛ إن فكرت أن ما علي فعله للدخول إلى السماء هو الوصول إلى حالة - مهما كان مقدار التعمة الذي تمنحني إياه الكنيسة - البر المحض، بدون أي عيوب، فإني أياض تماماً من نيل الخلاص يوماً. إن قلت لي إنني أخلص بهذه الطريقة، فهذا لا يكون خبراً ساراً بالنسبة إلي، إنه خبر رهيب. ما نراه في هذا الحديث وهذه المناقشة إحدى المسائل اللاهوتية الأهم التي يمكنك مناقشتها يوماً هي على الطاولة؛ ماذا يجب أن أفعل لأنال الخلاص؟

كَمَا سَنَرَى، إِنَّ شَاءَ اللَّهُ فِي مُحَاضَرَتِنَا الْمُقْبِلَةِ، مَا سَعَى إِلَيْهِ الإِصْلَاحُ هُوَ تَأْكِيدُ إِنْجِيلِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَهُوَ أَنَّهُ مَا
إِنْ يَمْلِكُ أَحَدٌ الإِيمَانَ الَّذِي يُخَلِّصُ فَإِنَّهُ يَنْتَقِلُ مِنْ مَمْلَكَةِ الظُّلْمَةِ إِلَى مَلَكُوتِ الثُّورِ، وَيُعْلَنُ بَارًّا عَلَى أَسَاسِ بَرِّ
الْمَسِيحِ، وَيَتِمُّ تَبْنِيهِ فِي عَائِلَةِ اللَّهِ، وَتُغْفَرُ لَهُ خَطَايَاهُ، وَتُمْحَى إِلَى الأَبَدِ، لَا مَظْهَرَ، وَلَا بَنْدًا ثَانِيًا لِلتَّيْبِيرِ. لَكِنْ كَمَا
قُلْتُ، إِنَّ شَاءَ اللَّهُ سَتَنْتَرَقُّ إِلَى هَذِهِ النَّظَرَةِ فِي مُحَاضَرَتِنَا الْمُقْبِلَةِ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خَدَمَاتِ لِيْجُونِيرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقِدِّيسِ أَنْدْرُو (St. Andrews
Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلإِصْلَاحِ (Reformation
Bible College). وَهُوَ مُؤَلِّفٌ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُلُّنَا لَاهُوتِيُونَ" (Everyone's A Theologian).